ثوب وزوج !!

ما كاد عمر بن عبد العزيز يتولى الخلافة ، حتى أحس بأنه مقيد ؛ لم تعد له تلك الحرية الطليقة التى كان يتمتع بها إلى حين ، حينما كان يخلد إلى نفسه ، فيرعى مصالحها ، ويصلح من أمرها ... أما الآن فقد أصبح مسئولا عن كل فرد من أفراد رعيته أمام الله ، الذى ولاه أمر الناس ، وما أعظم هذه المسئولية ، وأشق هذه التبعات الجسام ..

وضايقته هذه المظاهر التى أسرف فيها خلفاء بنى أمية إسرافا ؛ خرج بها عن جادة الصواب ، وباعد بينهم وبين روح الإسلام ، التى تأبى هذه المظاهر ، وتبرأ من هذا التبذير والرياء ، وبدأ يطهر البلاد من أوساخها ، والخلافة من أدرانها ، معتمداً فى ذلك على الله ، الذى لايخشى غيره ، ولا يخاف سواه . .

وما كاد يؤدى مهمته هـــذه ؛ حتى اتجه وجهة أخرى فيها مظاهر السرف والترف ، والتبذير المقيت ، وهى بقية مما ترك هؤلاء الأمويون ؛ الذين نظروا إلى الدنيا من زاوية واحدة ، أعمتهم عن كل شىء ، وصرفتهم عن أهم ما يتحلى به الحاكم ، ويتسم به الخليفة . . نظروا إليها من حيث هى دار لذة ومتعة ، وراحة ونعيم . . وغفلوا عن خير مافى هذه الحياة الدنيا وهوالزهد فيها ، والرغبة عن لذائذها ومتاعها ، والتقرب بها إلى الله فحسب ،

واستغلال جميع النعم فى سبيل الخير الخاص والعام ، الخير الذى ينفع الناس فى دينهم ، ويجعلهم أعزة غير أذلة ، أقوياء يرهبهم العدو ، ويخشى بأسهم ، ويخاف صولتهم على أن يكون العدل المطلق أساس هذه الحياة ، لا العنت والجبروت ، أو التعاظم على الناس ، والاندفاع مع الكبرياء المقيتة التى تسىء إلى الإسلام والمسلمين ، وتكون شر عنوان للأمة ، ومعول هدم ، يهدم صرحها و بنيانها . .

ولكن هذا الشىء الذى اتجه إليه ، سيجعله دون ريب فى موقف حرج ؛ لأنه يتصل بأحب شىء إلى نفس المرأة ، وأعزه لديها . . يتصل بزينتها وحليها . . والمرأة تفضل أن تجوع أياما راضية مختارة ، ما دامت تستكمل أدوات زينتها ، مما يظهرها جميلة فى نظر الرجل ، وبخاصة من تحب . .

وأدرك عمر بن عبدالعزيز ذلك ، ولكنه تذكر أنه خليفة ، وأنه يجب أن يبذل ما فى وسعه فى سبيل خير المسلمين ، وفى سبيل إسعادهم ورفاهيتهم ، وهو يعلم أن هذا الثوب الجميل الغالى الثمن ، الذى تملكه زوجته ، والذى صنعه لها أبوها عبد الملك بن مروان ، فيه شبهة لاجرم . .

أليس عبد الملك من خلفاء بنى أمية الذين أسرفوا فى مظاهر الخلافة ، وأمعنوا فى التبذير ؛ حتى خرجوا بالخلافة عن السنن القويم ؛ الذى كانت عليه أيام الرسول الكريم ، والخلفاء الراشدين من بعده ؟ لقد أصبحت فى هذا العهد العجيب ملكا بكل مظاهره ومزاياه . .

إذن فهذا الثوب من مال المسلمين ، ومن الإنصاف أن يباع و يوضع

ثمنه فى بيت مالهم ، أو يوضع بنفسه فى بيت المال ، ليكون ضمن ما يملك المسلمون .. وهذا حكم الله ، ولا حكم غيره ..

وتنازعته هذه العواطف المختلفة ، والمشاعر المتباينة ، ولم يتمالك نفسه من شدة الانفعال ففاضت دموعه وبكى .. !!

* * *

وحاول أن يقاوم عمر بن عبد العزيز هذه الرغبة القاهرة فى مصارحة زوجته بكل ما يجوس فى خاطره ، ولكن ذهبت محاولاته أدراج الرياح ، ووجد نفسه مندفعا نحو زوجته ، وما كاد يدخل عليها حتى بكى واستعبر .. !!

يا لله ! ما هذا ؟

وفغرت الزوجة فاها ، حينما رأت زوجها على هذه الحال من الحزن العميق ، وقد استبد به الأسى والالتياع ، وظهرت على وجهه هذه العلائم فى وضوح وجلاء .. لماذا كل هذا العناء والألم الشديد ؟ إن هذا لغريب ، إن زوجها يجب عليه أن يفرح ويسر ، بدل أن يحزن ويعبس .. إنه أصبح خليفة له قيمته ومكانته .. لقد عهد إليه أخوها سليمان بالخلافة ؛ وانتخبه المسلمون كذلك ، ووضعوا أعناقهم فى يديه ، واستودعوه آمالهم وأمانيهم فرحين مغتبطين ، وهم يعلمون أنهم بذلك يعيدون عهدا من عهود الخلفاء الراشدين .. فما سبب هذا الحزن الآن ، ولا داعى له أبدا

واحترمت الزوجة الوفية شعور زوجها ، وصمتت حتى استفاق من بكائه انتعش من عبرته . فقالت فى حنان :

— ما يبكيك ياعمر ؟

— اختارينى ، أو اختارى الثوب الذى عمله لك أبوك . .

وفوجئت الزوجة بهذا الكلام ، فما علاقة الثوب به ؟ ولماذا يريد ن يتخلص من الثوب ، وهو غال عندها ، أثير لديها ؟!

إن هذا الثوب يذكرها بأبيها عبدالملك بن مروان . . ثم هو غال جداً ، إذ أنفق عليه عبدالملك مائة ألف دينار . . لقد افتنّ فيه الصانعون ، فنسجوه بالذهب ، ونظموه بالدر والياقوت ؛ حتى خرج طرفة فنية يلفت النظر ، و يبعث الفرحة الغامرة فى نفس كل من رآه . .

ثم لماذا يريد عمر أن يتخلص من هذا الثوب الذى هو كمال زينتها ؛ وتمام حليها ؟ هل يريدها امرأة عادية من عامة النساء ، لاترفل فى الديباج والحرير ، ولا تتحلى بالذهب والأحجار الكريمة ؟ . .

إنها ابنة خليفة ، وأخت خليفتين ، وها هى تى الآن قد أصبحت زوجة خليفة ، ومن حقها أن تلبس هذا الثوب عن جدارة واستحقاق ، فلماذا يريد أن يحرمها منه ، وأن يجعلها عطلا من الزينة ، مجردة مما تهتم به المرأة وتعتبره من ضروريات الحياة ولوازمها . . ؟ ترى هل ملها وسئمها ، فهو لا يريدها مزينة أو مجردة من الزينة ؟ وهل يريد أن ينتفع بثمن هـــذا الثوب ؟ إن كان هذا ، فهو البلاء بعينه ، وما تستبعد أن يقع فيه عمر . .

أجل ، فهى تعلم أنه يحبها حبا ملك عليه عواطفه ومشاعره ، وأنه لا يرضى بغيرها بديلا ، فهو كلف بها ، يبدو هذا فى معاملته لها طوال حياتهما الزوجية السعيدة ، التى لم تشبها بحمد الله شائبة ، تعكر الصفو ، أو تكدر الخاطر .. !!

الأمر إذن واضح كل الوضوح ، فلا بد أن يكون عمر قد هدف إلى ناحية هامة خفيت عليها ، وله فيها وجهة نظر ، وهذا عهدها به دائما ..

وفهم عمر ما تعانيه من ثورة نفسية ، فأشفق عليها وأخرجها منها خشية أن تذهب مع الخيال مذاهب شتى ، فقال لها موضحا شارحا :

— إن اخترتينى ، فإنى آخذ الثوب فأجعله فى بيت المال ، وإن اخترت الثوب ، فلست لك بصاحب ..

أوه .. إذن لقد فهمت كل شىء ، وظهر لها الأمر على حقيقته ، فعمر يضنيه خطأ أسلافها ، وبذخهم الشديد ، وإسرافهم فى أموال المسلمين ؛ التى جعلها الله حقا لهم ، تدفع الفقر عن الناس ، وتكفيهم ألم الحاجة ، وذل السؤال ، وتقوى حصونهم ، وترقى بهم إلى أسمى مراتب الكمال الإنسانى . . أما الزينة والحلى ، وأما حبس الأموال على هذه الأغراض ، فلا طائل تحته ولا خير فيه ، وبخاصة وأن الخليفة يجب أن يحيا حياة مثالية لا أثر للبذخ فيها ، ولا حظ للإسراف منها . .

إذن فخير لها ألف مرة ومرة أن تدفع بهذا الثوب إلى بيت المال .. وأن تختار عمر .. عمر زوجها الوفى الأمين ، الذى يرعى حق الله فيها ، ويؤدى

لها حقوقها فى حدود الإسلام على أتم وجه .. إنه الرجل بأوسع ما تحمل هذه الكلمة من معان ، وإنه الآن يأمرها بالخير ، ويحملها عليه حملا ، فلا يليق بها أن تنكص على عقبيها ، وأن تتراجع ، وأن يغلب شيطانها حق عمر .. لا لا .. إن الحق فوق كل شىء ، ثم لا يضيرها ما يريد زوجها .. وما المانع أن تدفع بكل ما تملك إلى بيت المال ؟ إنها فرد من أفراد الأمة الإسلامية ، وعليها تبعات جسام ، ومن حق الأمة عليها أن تستفيد منها ما دامت تملك شيئا تعاونها به ، ويكون فيه قوة لها .. وإن هذا الثوب يجب أن يكون فى بيت المال وأن تحتسبه عند الله .

ولم تدع الفرصة تفلت ، فقالت فى عزم وتصميم :

— أعوذ بالله يا أمير المؤمنين من فراقك .. لا حاجة لى بالثوب ..

وتهللت أسارير وجهه ، واهتز قلبه فرحا وسرورا ، فلقد أنقذه الله من هذه الشدة التى نزلت بساحته ، وحلت به .. وأدركه شىء من العطف عليها ! إذ سره إخلاصها ، وشدة إيمانها ، وإيثارها المسلمين على نفسها ، ولهذا قال فى تؤدة :

— سأفعل بك خصلة ترضينها ..

— وما هى ؟ !

— أجعل الثوب فى آخر بيت المال .. وأنفق ما دونه ..

— ثم ماذا ؟ ..

— ثم إن وصلت إليه أنفقته فى مصالح المسلمين .. وإنما هو من أموالهم أنفقته فى مصالحهم ..

— حسناً ..

— وإن بقى الثوب ، ولم احتج إليه ، فلعل أن يأتى بعدى من يرده إليك . .

— افعل ما بدا لك ..

وبدت عليها مظاهر الراحة والاطمئنان ، فهذا حل موفق ، أرضى به عمر دينه وضميره ، ولم يغضبها أو يغبنها فى الوقت ذاته .. وهانت الدنيا فى نظرها حينئذ ، وعلمت أن الحياة ليست حليا وزينة ، وليست مظاهر تستنفد القوى ، وتهدم الأبدان ، وإنما هى أسمى من هذا وأرفع ، وإذا لم يفهمها الإنسان على حقيقتها ، اندفع مع هواه ، ولم يستطع بعد هـذا أن يكبح جماح نفسه ، أو يردها إلى الخير مرة أخرى ..

ونظرت إلى زوجها وأطالت النظر ، وودت لو تمسك به ، إذ خيل إليها أن أحداً كان يريد أن ينتزعه منها ، ودون ذلك خرط القتاد ، وجدع الأنف ، ودق العنق . .